الفكر الصوفي الفلسفي رؤية نقدية

وليد مصلح ناجي محمد
جامعة خاتم المرسلين العالمية كلية أصول الدين والدراسات الإسلامية
كوفنتري – بريطانيا

تعريف التصوف:

يقل اختلاف الصوفية في اختلاف تعريف التصوف عن اختلافهم في أصله واشتقاقه ، بل ازدادوا تعارضا وتناقضا فيه كثيرا ، ولقد ذكر صوفي فارسي قطب الدين أبو المظفر منصور بن أردشير السنجي المروزي المتوفي سنة ٤٩١ هـ أكثر من عشرين تعريفا.[١]

وكذلك السراج الطوسي [٢]، والكلاباذي [٣]، والسهروردي [٤]، وابن عجيبة الحسني.[٥]

وأما القشيري فلقد ذكر في رسالته أكثر من خمسين تعريفا من الصوفية المتقدمين.[٦]

كما ذكر المستشرق نيكلسون ثمانية وسبعين تعريفاً.[٧] وليس معنى ذلك أن هذا العدد هو الأخير في تعريف التصوف ، بل ذكر السراج في لمعة أن تعريفاته تتجاوز مائة تعريف.[٨]

وقال السهر وردي : (وأقوال المشائخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول) [٩] وقال الحامدي : (الأقوال المأثورة في التصوف قيل : أنها زهاء ألفين) [١٠] ونختار من هذه التعريفات الكثيرة بعضها نموذجا للقراء والباحثين ، فينقل السراج الطوسي أن الجنيد سئل عن التصوف ، فقال : (أن تكون مع الله تعالى بلا علاقه).

---

[١]) انظر مناقب الصوفية فارسي ص ٣١ وما بعد باهتمام محمد تقي دانش بيوه وايرج افشارط ط طهران ١٣٦٢ هجري قمري.

[٢]) انظر اللمع للطوسي ص ٤٥ وما بعد.

[٣]) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨ وما بعد.

[٤]) انظر عوارف المعارف ص ٥٣ وما بعد.

[٥]) انظر إيقاظ الهمم ص ٤ وما بعد.

[٦]) انظر الرسالة القشيرية ج ٢ ص٥٥١ وما بعد.

[٧]) انظر التصوف الإسلامي وتاريخه ترجمة عربية للدكتور أبي العلاء العفيفي ص ٢٨ وما بعد ط القاهرة.

[٨]) كتاب اللمع للطوسي ص ٤٧.

[٩]) عوارف المعارف للسهروردي ص٥٧ , أيضا نشر المحاسن الغالية لليافعي ج٢ ص٣٤٣.

[١٠]) الإنسان والإسلام لمحمد طاهر الحامدي نقلا عن مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف , لمحمود النواوي ص١١.

وقال سمنون في جواب سائل سأله : أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء . وقيل لأبي الحسين أحمد بن محمد النوري : من الصوفي ؟ ، فقال : من سمع السماع وآثر بالأسباب. [١]

وينقل القشيري عن الجنيد أنه قال : (التصوف عقدة لا صلح فيها). وأيضا : هم أهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم. وعن أبي حمزة البغدادي أنه قال : علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفي بعد الشهرة . وعن الشبلي أنه قال : التصوف برقة محرقة . وعنه أنه قال : التصوف هو العصمة عن رؤية الكون. [٢]

ونقل منصور بن أردشير عن الحسين بن منصور أنه قال في جواب من سأله عن الصوفي: هو وحداني الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدا).[٣]

ونقل محمد بن إبراهيم النفزي الرندي عن أحد الصوفية : (أن الصوفي من كان دمه هدرا، وملكه مباحا) [٤] وذكر السلمي عن أبي محمد المرتعش النيسابوري أنه سئل عن التصوف، فقال الاشكال والتلبيس والكتمان وذكر عن أبي الحسين النوري أنه قال : (التصوف ترك كل حظ النفس). [٥]

ونقل الكلاباذي وعبد السلام الأسمر الفيتوري عن الجنيد أنه سئل عن التصوف، فقال : تصفية القلب من موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية.

وذكر عن سهل بن عبد الله التستري أنه سأله رجل : من أصحب من طوائف الناس ؟. فقال: عليك بالصوفية ، فإنهم لا يستكثرون ، ولا يستنكرون شيئا ، ولكل فعل عندهم تأويل ، فهم يعذرونك على كل حال . وعن يوسف بن الحسين أنه قال : سألت ذا النون : من أصحب ؟ فقال : من لا يملك ، ولا ينكر عليك حالا من أحوالك ، ولا يتغير بتغيرك وإن كان عظيما ، فانك أحوج ما تكون إليه أشد ما كنت تغيراً). [٦]

---

[١]) اللمع للطوسي ص ٤٧ وما بعد.

[٢]) الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥٠ وما بعد.

[٣]) مناقب الصوفية لمنصور بن أردشير ص ٣٣.

[٤]) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية للنفزي الرندي ج ١ ص٢٠٣ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد بن الشريف ط دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٠م.

[٥]) طبقات السلمي ص٣٨.

[٦]) التعرف للكلاباذي ص٣٤ ,٣٥ , أيضا الوصية الكبرى لعبد السلام الأسمر الفيتوري ص ٣٧ ط مكتبة النجاح طرابلس ليبيا الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ.

وذكر الهجويري أن الصوفي هو الفاني عن نفسه ، والباقي بالحق قد تحرر من قبضة الطبائع ، واتصل بحقيقة الحقائق . ونقل عن الجنيد أنه قال : التصوف نعت أقيم العبد فيه ، قيل : نعت للعبد أو نعت للحق ؟. فقال نعت الحق حقيقة ، ونعت العبد رسما.

وعن الشبلي أنه قال : التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن الغير ، ولا غير). [١] وذكر عبد الرحمن الجامي أن الصوفي هو الخارج عن النعوت والرسوم . ونقل عن أبي العباس النهاوندي أنه قال : التصوف بدايته الفقر). [٢] وذكر العطار عن أبي الحسن الخرقاني أنه قال : (أن التصوف عبارة عن الجسم الميت والقلب المعدوم والروح المحرقة ." وأنه قال : إن الخلق كله مخلوق ، والصوفي غير مخلوق ، لأنه معدوم و، أو أن الصوفي من عالم الأمر ، لا من عالم الخلق).[٣]

ونقل العطار أيضا عن الجنيد أنه قال :

(الصوفي هو الذي سلم قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا ، وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله ، وتسليمه تسليم إسماعيل ، وحزنه حزن داوود ، وفقره فقر عيسى ، وصبره صبر أيوب ، وشوقه شوق موسى وقت المناجاه ، وإخلاصه إخلاص محمد).[٤] وقال الصوفي الهندي فريد الدين الملقب بكنج شكر : (إن التصوف أن لا يبقى في ملكك شيء ، ولا يبقى وجودك في مكان . وقال : إن أهل التصوف يقيمون صلواتهم على العرش يوميا . وقال : إن الصوفي من لا يخفى على قلبه شيء).[٥]

فهذه هي تعريفات التصوف والصوفية لدى أعلام الصوفية وأقطابهم أنفسهم ، ونقلناهم من كتبهم ، تضاربت فيها أراء القوم ، وتعارضت فيها أقوالهم ،لا جمع بينهما ولا وفاق رغم ما ادعاه بعض المتأخرين ، وحاولوا التوفيق ولكن دونه خرط القتاد ، لأن كل تعريف مستقل عن التعريف الآخر ، وحتى التعريفات العديدة التي صدرت عن شخص واحد تباعد بعضها عن بعض كل البعد وهذا التباعد ظاهر جلي لكل من نظر فيها وقرأها تأمل وتدبر ، وتحقق وتعمق . ويجدر الإشارة هنا إلى أن تعريفات التصوف المتعددة التي ذكرناها واخترناها من تعريفات كثيرة جدا تنبئ صراحة عن حقيقة إدعاء علاقة التصوف بالإسلام

---

[١]) انظر كشف المحجوب للهجويري ص ٢٣١ وما بعد .

[٢]) نفحات الأنس للجامي (فارسى) ص ١٢.

[٣]) تذكرة الأولياء للعطار ص٢٨٨ وما بعد ط باكستان , أيضا أحوال وأقوال شيخ أبي الحسن الخرقاني (فارسي) الطبعة الثالثة ١٣٦٣ هجري قمري إيران.

[٤]) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (اردو) تحت ذكر الجنيد ص١٩٢ باكستان.

[٥]) أسرار الأولياء ص١٢٨ ,١٢٩ ط باكستان.

، وكونه روحه وعصارته.[1] الأمر الذي سوف يفصل الكلام فيه ، في الأبواب القادمة إن شاء الله تعالى.

بدء التصوف وظهوره إن الناس اختلفوا في بدء ظهور هذه الكلمة واستعمالها كاختلافهم في أصله وتعريفه ، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن الجوزي وابن خلدون في هذا أن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل ، وأبي سليمان الداراني وغيرهما ، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري.[2]

وقال السراج الطوسي في الباب الذي خصصه للرد على من قال : لم نسمع بذكر الصوفية في القديم وهو إسم مستحدث : يقول في هذا الباب : (إن سأل سائل فقال : لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين ، ولا فيمن كان بعدهم ، ولا نعرف إلا العباد والزهاد والسياحين والفقراء ، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : صوفي ، فنقول وبالله التوفيق.

الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لها حرمة ، وتخصيص من شمله ذلك ، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة ، وذلك لشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمته ، ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمختبين ، وغير ذلك ، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نسبوا إلى الصحبة والتي هي أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحية التي هي أجل الأحوال وبالله التوفيق .

وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله كان يعرف هذا الاسم ، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ، وقد رُوي عنه أنه قال : رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانيق يكفيني ما معي . وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء ، وقد ذكر الكتاب الذي جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار ، وعن غيره يذكر فيه حديثة : أنه قبل الإسلام

---

[1]) أنظر الإنسان والإسلام لمحمد طاهر الحامدي , ومقدمة التعرف لمحمود أمين النواوي.

[2]) الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام بن تيمية ص ٥ ط القاهرة , أيضا مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧ , تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ١٥٧ دار القلم بيروت لبنان.

قد خلت مكة في وقت من الأوقات ، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف ، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم ، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح ، والله أعلم). [١]

وبمثل ذلك قال السهروردي : (وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كان في زمن التابعين – ثم نقل عن الحسن البصري وما نقلناه عن الطوسي أيضا — ثم قال : وقيل : لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية). [٢]

وصرح عبد الرحمن الجامي: (أن أبا هاشم الكوفي أول من دعى بالصوفي ، ولم يسم أحد قبله بهذا الاسم ، كما أن أول خانقاه بني اللصوفية هو ذلك الذي في رملة الشام ، والسبب في ذلك أن الأمير النصراني كان قد ذهب للقنص فشاهد فشاهد شخصين من هذه الطائفة الصوفية سنح له لقاؤهما وقد احتضن أحدهما الآخر وجلسا هناك ، وتناولا معا كل ما كان معهما من طعام ، ثم سارا لشأنهما ، فسر الأمير النصراني من معاملتهما وأخلاقهما ، فاستدعى أحدهما ، وقال له : من هو ذاك ؟ قال : لا أعرفه ، قال : وما صلتك به ؟. قال : لا شيء . قال : فمن كان ؟. قال : لا أدري ، فقال الأمير : فما هذه الألفة التي كانت بينكما ؟. فقال الدرويش: إن هذه طريقتنا ، قال : هل لكم من مكان تأوون إليه ؟. قال : لا ، قال : فإني أقيم لكما محلا تأويان إليه ، فبنى لهما هذه الخانقاه في الرملة). [٣] وأما القشيري فقال : اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة). [٤]

وأما الهجويري فلقد ذكر أن التصوف كان موجودا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وباسمه ، واستدل بحديث موضوع مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين). [٥]

مع أنه نفسه كتب في نفس الباب في آخره شارحا كلام أبي الحسن البوشنجي (التصوف اليوم اسم بلا حقيقة ، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم) فكتب تحته موضحا:

(يعني أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف ، وكان المعنى موجودا في كل منهم ، والآن يوجد الاسم ، ولا يوجد المعنى). [١]

---

[١]) اللمع للطوسي ص٤٢,٤٣, أيضا الفتوحات الإلهية لابن عجيبة الحسنى ص ٥٣ ط عالم الفكر القاهرة.

[٢]) عوارف المعارف للسهروردي ص ٦٣.

[٣]) نفحات الأنس للجامي الطبعة الفارسية ص ٣١ ,٣٢ ط إيران.

[٤]) الرسالة القشيرية ج١ ص ٥٣ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود الشريف , أيضا جمهرة الأولياء للمنوفي الحسيني ج ١ ص ٢٦٩ ط مؤسسة الحلبي القاهرة.

[٥]) كشف المحجوب للهجويري مؤسسة ترجمة عربية ص ٢٢٧.

وأما المستشرقون الذين كتبوا عن التصوف ، ويعدون من موالي الصوفية وأنصارهم ، فمنهم نيكلسون فإنه يرى مثل ما يراه الجامي أن لفظة التصوف أطلقت أول ما أطلقت على أبي هاشم الكوفي المتوفي سنة ١٥٠ هـ [٢] ولكن المستشرق الفرنسي المشهور ما سينيون يرى غير ذلك ، فيقول : ورد لفظ الصوفي لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي إذ نعت به جابر بن حيان ، وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة ، له في الزهد مذهب خاص ، وأبو هاشم الكوفي الصوفي المشهور .

أما صيغة الجمع (الصوفية) التي ظهرت عام ١٨٩ هـ (٨١٤ م) في خبر فتنة قامت بالأسكندرية فكانت تدل قرابة ذلك العهد على مذهب من مذاهب التصوف الإسلامي يكاد يكون شيعيا نشأ في الكوفة ، وكان عبدك الصوفي آخر أئمته ، وهو من القائلين بأن الإمامة بالإرث والتعيين ، وكان لا يأكل اللحم ، وتوفي ببغداد حوالي عام ٢١٠ هـ. وإذن فكلمة صوفي كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة). [٣] وقال أيضا: صاحب عزلة بغدادي ، وهو أول من لقب بالصوفي ، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة ، وعلى رهط من الثائرين بالأسكندرية ، وقد يعد من الزنادقة بسبب إمتناعه عن أكل اللحم ، ويريد الأستاذ أول من لقب بالصوفي في بغداد كما يؤخذ مما نقله عن الهمذاني ، ونصه :(ولم يكن السالكون لطرق الله في الأعصار السالفة والقرون الأولى يعرفون باسم المتصوفة ، وإنما الصوفي لفظ أشتهر في القرن الثالث ، وأول من سمي ببغداد بهذا الاسم عبدك الصوفي ، وهو من كبار المشائخ وقدمائهم ، وكان قبل بشر بن الحارث الحافي والسري بن المفلس السقطي). [٤]

والجدير بالذكر أن هؤلاء الثلاثة الذين يقال عنهم بأنهم أول من سمو بهذا الاسم ، وتلقبوا بهذا اللقب مطعونون في مذاهبهم وعقائدهم ، ورمي كل واحد منهم بالفسق والفجور وحتى الزندقة ، وخاصة جابر بن حيان ، وعبدك كما سيأتي ذلك مفصلا في محله من الكتاب إن شاء الله.

---

[١]) أيضا ص ٣٩ .

[٢]) انظر في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية لأبي العلاء العفيفي ص٣ ط القاهرة.

[٣]) دائرة المعارف الإسلامية أردو ج٦ ص٤١٩ ط جامعة بنجاب باكستان , أيضا دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية مادة تصوف ج٥ ص ٢٦٦.

[٤]) التصوف لماسينيون ومصطفى عبد الرزاق ص ٥٥ , ٥٦ ط دار الكتاب اللبناني ١٩٨٤ م , أيضا تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غني ترجمة عربية لصادق نشأت ص ٦٤ ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

وقد سبق كلام شيخ الاسلام ابن تيمية حيث قال : (إن لفظ الصوفية لم يكن مشهورة في القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك). [١]

وبمثل ذلك قال ابن خلدون. [٢] فخلاصة الكلام أن الجميع متفقون على حداثة هذا الاسم ، وعدم وجوده في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف الصالحين .

نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهد خلق الله في الدنيا وزخارفها ، وأصحابه على سيرته وطريقته ، يعدون الدنيا وما فيها لهوا ولعبا ، زائلة فانية ، والأموال والأولاد فتنة ابتلي المؤمنون بها ، فلم يكونوا يجعلون أكبر همهم إلا ابتغاء مرضاة الله ، يرجون لقاءه وثوابه ، ويخافون غضبه وعقابه ، آخذين من الدنيا ما أباح الله لهم أخذه ، ومجتنبين عنها ما نهى الله عنه ، سالكين مسلك الاعتدال ، منتهجين منهج المقتصد ، غير باغين ولا عادين ، مفرطين ولا متطرفين ، وعلى رأسهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلفاء الراشدون ، وبقية العشرة المبشرة ، ثم البدريون ، ثم أصحاب بيعة الرضوان ، ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ثم عامة الأصحاب ، على ترتيب الأفضلية كما مر سابقا في الفصل الأول من هذا الباب . وتبعهم في ذلك التابعون لهم بإحسان ، واتباع التابعين ، أصحاب خير القرون ، المشهود لهم بالخير والفضيلة ، ولم يكن لهؤلاء كلهم في غير رسول الله أسوة ولا قدوة ، الذي قال فيه جل وعلا : { ألم يجدك يتيما فآوى ٦ ووجدك ضالا فهدي ٧ ووجدك عالا فأغنى ٨ فأما اليتيم فلا تقهر و وأما السائل فلا تنهر ١٠ وأما بنعمة ربك فحث ١١ }

والذي إذا وجد طعاما فأكل وشكر، وإذا لم يجد فرضي وصبر ، وأحب لبس الثياب البيض ، واكتسب جبة رومية ، ونهى عن التصدق بأكثر من ثلث المال ، وأمر بحفظ حقوق النفس والأهل والولد ، ونهى عن تعذيب النفس و اتعاب الجسد والبدن ، وحرص متبعيه على طلب الحلال ، وطلب الحسنات في الدنيا والآخرة ، ومنع الله تعالى من التعنت والتطرف في ترك الدنيا وطيباتها في آيات كثيرة في القرآن الكريم ، سنوردها في موضعها من الكلام إن شاء الله .

ثم خلف من بعدهم خلف فتطرفوا ، وذهبوا بعيدا في نعيم الدنيا وزخارفها ، وفتحت عليهم أبواب الترف والرخاء ، ودرت عليهم الأرض والسماء ، وأقبلت عليهم الدنيا بكنوزها وخزائنها ، وفتحت عليهم الآفاق فانغمسوا في زخارفها وملذاتها ، وبخاصة العرب الفاتحون

---

[١]) انظر الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام بن تيمية ص٥.

[٢]) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٦.

الغزاة ، والغالبون الظاهرون ، فحصل رد الفعل ، وفي نفوس المغلوبين المغزوين والمقهورين ، من الموالي والفرس والمفلسين وأصحاب النفوس الضعيفة المتوانية خاصة ، فهربوا عن الحياة ومناضلتها ، وجدها وكدها ، ولجأوا إلى الخانقاوات والتكايا والزوايا والرباطات ، فرارا من المبارزة والمناضلة ، وصبغوا هذا القرار والانهزام ورد الفعل صبغة دينية ، ولون قداسة وطهارة ، وتنزه وقرابة ، كما كان هنالك أسباب ودوافع ومؤثرات أخرى ، وكذلك أيدي خفية دفعتهم إلى تكوين فلسفة جديدة للحياة ، وطراز آخر من المشرب والمسلك ، وأسلوب جديد للعيش والمعاش ، فظهر التصوف بصورة مذهب مخصوص ، وبطائفة مخصوصة اعتنقه قوم ، وسلكه أشخاص ساذجون بدون تفكير كثير ، وتدبر عميق كمسلك الزهد ، ووسيلة التقرب إلى الله ، غير عارفين بالأسس التي قام عليها هذا المشرب ، والقواعد التي أسس عليها هذا المذهب ، بسذاجة فطرية ، وطيبة طبيعية ، كما تستر بقناعه ، وتنقب بنقابه بعض آخرون لهدم الإسلام وكياته ، وإدخال اليهودية والمسيحية في الإسلام ، وأفكارهما من جانب ، والزرادشتية والمجوسية والشعوبية من جانب آخر ، وكذلك الهندوكية والبوذية والفلسفة اليونانية الأفلاطونية من ناحية أخرى ، وتقويض أركان الإسلام وإلغاء تعاليم سيد الرسل صلى الله عليه وسلم ، ونسخ الإسلام وإبطال شريعته بنعرة وحدة الوجود ، ووحدة الأديان ، وإجراء النبوة ، وترجيح من يسمي بالولي على أنبياء الله ورسله ، ومخالفة العلم ، والتفريق بين الشريعة والحقيقة ، وترويج الحكايات والأباطيل والأساطير ، باسم الكرامات والخوارق وغير ذلك من الخلافات والترهات.

فلم يظهر التصوف مذهبا ومشربا ، ولم يرج مصطلحاته الخاصة به ، وكتبه ، ومواجيده وأناشيده ، تعاليمه وضوابطه ، أصوله وقواعده ، وفلسفته ، ورجاله وأصحابه إلا في القرن الثالث من الهجرة وما بعده . وبذلك يقول ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس : (كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأيمان والإسلام . فيقال : مسلم ومؤمن ، ثم حدث اسم زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، فتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة ، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقا تخلقوا بها ، ثم قال : وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه ، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وجعله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى ... وعلى هذا كان أوائل القوم ، فلبس عليهم إبليس في أشياء ، ثم لبس على

بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن التالي فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن . وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات. فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا مايصلح أبدانهم. وشبهوا المال بالعقارب ، ونسوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة . وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوسواس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي. وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم مازال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعا ويتكلمون بواقعاتهم. ويتفق بعدهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر. ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمان فيه فكأنهم تخايلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به. وهؤلاء بين الكفر والبدعة ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق. ففسدت عقائدهم. فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالإتحاد. وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا وجاء أبو عبد الرحمن السلمي فصنف لهم كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم. وإنما حملوه على مذاهبهم. والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن. وقد أخبرنا

أبو منصور عبد الرحمن القزاز، قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري قال كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئا يسيرة فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه. وكان يضع للصوفية الأحاديث.

وصنف لهم أبو نصر السراج كتابا سماه لمع الصوفية ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكر منه جملة إن شاء الله تعالى. وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة ومالا يستند فيه من أصل من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوع وذكر فيه الاعتقاد الفاسد. وردد فيه قول – قال بعض الكاشفين – وهذا كلام فارغ وذكر فيه عن بعض الصوفية إن الله عز وجل يتجلى في الدنيا الأوليائه. أخبرنا أبو

منصور القزاز أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال أبو طاهر محمد بن العلاف، قال: دخل أبو طالب المكي إلى البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم فانتمى إلى مقالته وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ فخلط في كلامه فحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوق أضر من الخالق. فبدعة الناس وهجروه فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك قال الخطيب: وصنف أبو طالب المكي كتابا سماه قوت القلوب على لسان الصوفية وذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة في الصفات.

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب الحلية. وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وسادات الصحابة رضي الله عنهم. فذكر عنهم فيه العجب وذكر منهم شريحة القاضي والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية الفضيل وإبراهيم وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد .

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما . أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء ، والقبض ، والبسط ، والوقت ، والحال ، والوجد والوجود ، والجمع و والتفرقة ، والصحو والسكر ، والذوق ، والشرب ، والمحو ، والإثبات ، والتجلي ، والمحاضرة والمكاشفة ، واللوائح والطوالع ، واللوامع ، والتكوين ، والتمكين والشريعة ، والحقيقة . إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره وأعجب منه ، وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم صفوة التصوف فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول : كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة : قال وصنف كتابا في جواز النظر إلى المراد أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين قال : رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها . فقيل له تصلي عليها فقال صلى الله عليها وعلى كل مليح . قال شيخنا ابن ناصر ، وليس ابن طاهر بمن يحتج به ، وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه ، وقال أن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات . وهذا من جنس كلام الباطنية. وقال في كتابه المفصح بالأحوال . إن الصوفية في يقظتهم

يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق). [1] فهكذا كون هذا المذهب، وصار مستقلا بمبادئه وآرائه ، وله مصادره ومراجعه ، وتعاليمه ورسومه. وإلى هنا نأتي إلى آخر هذا الباب .

مصادر التصوف ومآخذه:

إن أمر التصوف كله مختلف فيه ، فكما أختلف في أصله واشتقاقه ، وحده وتعريفه ، بدئه وظهوره ، وفي أول من تسمى به وتلقب به ، كذلك اختلف في منبعه ومأخذه ، ومصدره ومرجعه ، فتشعبت الآراء وتنوعت" الأقوال ، وتعددت الأفكار ، فقال قائل : إنه إسلامي بحت في أشكاله وصوره ، ومبادئه ومناهجه ، وأصوله وقواعده ، وأغراضه ومقاصده ، حتى في ألفاظه وعباراته ، وفلسفته وتعاليمه ، ومواجيده وأناشيده ، ومصطلحاته ومدلولاته ، وهذا هو إدعاء الصوفية ومن والاهم ، وناصرهم ، ودافع عنهم .

وقال قوم : لا علاقة له بالإسلام إطلاقا ، قريبة ولا بعيدة في اليوم الذي نشأ فيه ، ولابعد ماتطور ، وهو أجنبي عنه كاسمه ، فلذلك لا يفتش عن مصادره ومآخذه في القرآن والسنة وإرشاداتهما ، بل يبحث عنها في الفكر الأجنبي ، وهو رأي أكثر السلفيين ومن نهج منهجهم وسلك مسلكهم وكذلك الفقهاء والمتكلمين من أهل السنة من المتقدمين ، والأكثرية الساحقة من المستشرقين ، والكثير من الباحثين والمفكرين المتحررين من الجمود وعصبية التقليد ، من المتأخرين . وقالت طائفة : إنه اسم للزهد المتطور بعد القرون المشهود لها بالخير كرد فعل لزخرفة المدينة وزينتها التي انفتحت أبوابها على المسلمين بعد الغزوات والفتوحات وانغماسهم في ترف الدنيا ونعيمها ، ثم حصلت فيه التطورات ، ودخلت أفكار أجنبية والفلسفات غير الإسلامية وذهب إلى هذا الرأي ابن تيمية والشوكاني من السلفيين وغيرهم من بعض أعلام أهل السنة ، حتى الصوفية أنفسهم وبعض المستشرقين .

وقال الآخرون : إن التصوف وليد الأفكار المختلطة من الإسلام واليهودية والمسيحية ومن المانوية والمجوسية والمزدكية ، وكذلك الهندوكية والبوذية ، وقبل كل ذلك من الفلسفة اليونانية وآراء الأفلاطونية الحديثية ، وتمسك بهذا الرأي بعض الكتاب في الصوفية من المسلمين وغير المسلمين .

---

[1]) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٥٦ إلى ١٦٠ ط دار القلم بيروت لبنان.

فهذه هي خلاصة الاختلاف والآراء المختلفة في أصل التصوف ومأخذه ، ننقاشها في هذا الباب ، وندعم رأينا الذي نراه من بين هذه الآراء المتعددة ، بالأدلة والشواهد ، الخارجية منها والداخلية ، فنقول : إن أفضل طريق للحكم على طائفة معينة وفئة خاصة من الناس هو الحكم المبني على آرائه وأفكاره التي نقلوها في كتبهم المتعمدة والرسائل الموثوق بها لديهم بذكر النصوص والعبارات التي يبني عليها الحكم ، ويؤسس عليها الرأي ولا يعتمد على أقوال الآخرين ونقول الناقلين ، اللهم إلا للاستشهاد على صحة استنباط الحكم وإستنتاج النتيجة . وهذه الطريقة ولو أنها طريقة وعرة شائكة ، صعبة مستعصية ، وقل من يختارها ويسلكها ، ولكنها هي الطريقة الصحيحة المستقيمة التي يقتضيها العدل والإنصاف.

وعلى ذلك عندما نتعمق في تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر ، وأقاويلهم المنقولة منهم ، والمأثورة في كتب الصوفية ، القديمة والحديثة نفسها ، نرى بونا شاسعا بينهما وبين تعاليم القرآن والسنة ، وكذلك لا نرى جذورها وبذورها في سيرة سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه الكرام البررة خيار خلق الله وصفوة الكون ، بل بعكس ذلك نراها مأخوذة مقتبسة من الرهبنة المسيحية ، والبرهمة الهندوكية ، وتنسك اليهودية ، وزهد البوذية ، والفكر الشعوبي الإيراني المجوسي عند الأوائل ، والغنوصية اليونانية والأفلاطونية الحديثة لدى الذين جاءوا من بعدهم ، وتدل على ذلك تعريفات القوم للتصوف ، التي نقلناها عن كبارهم فيما سبق.

المراجع

أسرار الأولياء ص١٢٨ ,١٢٩ ط باكستان.

الإنسان والإسلام لمحمد طاهر الحامدي , ومقدمة التعرف لمحمود أمين النواوي.

إيقاظ الهمم وما بعد.

تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (اردو) تحت ذكر الجنيد باكستان.

أحوال وأقوال شيخ أبي الحسن الخرقاني (فارسي) الطبعة الثالثة ١٣٦٣ هجري قمري إيران.

التصوف الإسلامي وتاريخه ترجمة عربية للدكتور أبي العلاء العفيفي وما بعد ط القاهرة.

التصوف لماسينيون ومصطفى عبد الرزاق ط دار الكتاب اللبناني ١٩٨٤ م

تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غني ترجمة عربية لصادق نشأت ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

التعرف للكلاباذي

الوصية الكبرى لعبد السلام الأسمر الفيتوري ط مكتبة النجاح طرابلس ليبيا الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ.

تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٥٦ إلى ١٦٠ ط دار القلم بيروت لبنان.

دائرة المعارف الإسلامية أردو ج٦ ص٤١٩ ط جامعة بنجاب باكستان , أيضا دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية مادة تصوف ج٥ ص ٢٦٦.

الرسالة القشيرية ج١ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود الشريف ,

جمهرة الأولياء للمنوفي الحسيني ج ١ ط مؤسسة الحلبي القاهرة.

الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام بن تيمية

غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية للنفزي الرندي ج ١ ص٢٠٣ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد بن الشريف ط دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٠م.

كشف المحجوب للهجويري مؤسسة ترجمة عربية ص ٢٢٧.

اللمع للطوسي ص٤٢,٤٣ , أيضا الفتوحات الإلهية لابن عجيبة الحسنى ص ٥٣ ط عالم الفكر القاهرة.

مناقب الصوفية فارسي ص ٣١ وما بعد باهتمام محمد تقي دانش بيوه وايرج افشارط ط طهران ١٣٦٢ هجري قمري.

نفحات الأنس للجامي الطبعة الفارسية ص ٣١ ,٣٢ ط إيران.